

الضوء والنور في المعارف الدينية

سيد حسين سيدى^١، محمد جواد حساوى^٢

تاريخ الوصول: ١٤٢٧/٩/١٥

تاريخ القبول: ١٤٢٨/١/٢٦

كثيرا ما ورد لفظ النور في القرآن والمعارف الدينية مثل الادعية، و الزيارات، والاحاديث، وما قدم عليها من شروح وتفسير، ان الاستخدام الواسع لهذا اللفظ لفت انتباه العلماء؛ حيث اخذ كل منهم يتطرق للموضوع حسب حقله الذي ينشط فيه. وقدموا قراءات مختلفة على ما يحتويه اللفظ من مصاديق ودلالات متعددة التي فرضته تلك النصوص عليه. فالدراسة التي بين يديك ايها القارئ الكريم تحاول سبر الموضوع بشكل دقيق لتلقي الضوء على جوانبه وتكشف الاتجاهات المختلفة التي ذهب اليها العلماء في ذلك.

الكلمات الرئيسية: النور، الضوء، القرآن، التفسير، الزيارات، مصاديق

١. استاذ مشارك، القسم العربي، جامعة مشهد

٢. طالب في دورة الدكتوراه، آداب اللغة العربية

المقدمة

تعتبر الشمس وغيرها من النجوم مصادر طبيعية لانبعاث الضوء ذاتياً، حيث يحدث الإحساس بالرؤية للأجسام " في ذاتها " مثل: الأقمار والكواكب عندما يسقط عليها هذا الضوء، ثم يرتد أو يتشتت وتستقبله عين الإنسان (أو الحيوان) أو أي جهاز بصري للتصوير أو الرصد. هذا ما اكتشفه العلم حديثاً. لكن القرآن وصف هذه الظاهرة وصفا علمياً دقيقاً، يؤكد أصحاب العقول السليمة، والنفوس الصحيحة، في كل زمان وفي كل مكان، أنه كتاب صادر من لدن حكيم عليم خبير، خالق مدبر، وهي أوصاف وحقائق ومعان علمية صحيحة لم تظهر إلا بعد مرور قرون عديدة من تاريخ نزول القرآن. أن الله سبحانه ساق الضياء (فعلاً ومصدرًا) للتعبير عن الضوء المنبعث من الأجسام والأجرام مثل الشمس، و أورد النور (وتقابلها الظلمة) للتعبير عن الضوء المنعكس عن الأجسام المعتمة، مثل القمر. انه بين هذه الظاهرة بتعبير لطيف مطابقاً للقوانين الفيزيائية التي اكتشفها العلم فيما بعد، وهي الآية التي يقول الله تبارك وتعالى فيها: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» (البقرة، الآيتين ١٦ و ١٧).

هذه الآية الفيزيائية تدلّ ظاهراً على المفهوم الظاهري والمتصور لدى الجميع من الضوء وهو الضياء الحسي الذي يمكن الانسان من مشاهدة الاشياء بعد سقوطه عليها وانعكاسه الى الحاسة البصرية، لكنه فضلاً على هذا الجانب، تشير الآية الكريمة الى جانب آخر، شغل بال الكثير من العلماء، والحكماء، والعرفاء، والمفسرين للمعارف القرآنية، السلف منهم والخلف، ولم يكن هذا الجانب الا الجانب المعنوي للضوء، وهو الضياء المعنوي.

الشيخ صدر الدين محمد الشيرازي في تعريفه للنور يتعرّض الى الجانبين حيث يقول فيهما انّ المفهوم الظاهري مظهر الاجسام على الابصار، و المفهوم المعنوي هو الظاهر

بذاته والمظهر لغيره (صدر المتألهين، ج ١: ٨٨-٨٩).

لقد ورد لفظ النور و الضوء في خمسين آية تقريباً، كما وردا في الكثير من الروايات و النصوص الدينية التي وصلت اليها عن طريق الرواة الثقة لاهل البيت. فمعظمها تشير إلى النور المعنوي، و إن كانت تشير في بعض المواضع إلى النور الحسي أو النور الحسي و المعنوي، و هو نور في الحقيقة، لا شبيهاً بالنور، و لا مسميً بالنور مجازاً و كنايةً و استعارة. بل هو نور بتمام معناه الحقيقي و الواقعي، و هذا النور الحقيقي أقوى و أشدّ إضاءة بآلاف المرات من النور المادّي الطبيعي.

على العموم ايها القارئ الكريم كل ما يقصده المقال الذي بين يديك هو القاء الضوء على مفهوم النور و دلالاته التي وردت في القرآن و الادعية و الزيارات و التعليقات التي جاء بها المفسرون و الشارحون لهذه النصوص حول مفهوم النور. فأنها تقوم بعرض بعض التعاريف التي قدمها العلماء المختلفون، وكذلك تقدّم عرضاً موجزاً لتقسيماتهم لمفهوم النور و آراءهم فيه.

تعريف النور

النور لغوياً بمعنى الضوء، و السناء، و الضياء. فهذا التعريف تعريف عامّ للنور. هناك من يعرفه بضده قائلاً الضياء الذي يقابل الظلمة و يجعل النور مقابلاً للظلمة (امام فخر الرازي، ١٩٨٣، ج ٢/١: ٨٣). هنالك تعريف آخر دقيق للنور نجده في معجم «اقترب الموارد» و «منتهى الأرب». فالاول يقول فيه أنه شعاع الضوء في قوله: "الضوء ايا كان و هو خلاف الظلمة او شعاعه و قيل النور كيفية تدركها الباصرة اولا و بواسطها سائر المبصرات (الخوري، ج ٥: ١٣٧٤). والثاني يقول: انّها كيفية تدرك بحاسة البصر يتمكن الإنسان عن طريقها أن يرى الأشياء.

اذا التعريف العربي للنور هو الشئ الظاهر في نفسه والمظهر لغيره، فالشمس مثلاً نور؛ لأنّها ظاهرة بنفسها و مظهره للأشياء بإشراقها و ضيائها، و هي لا تحتاج إلى مظهر تكتسب

والعرض و هو النور الحسى و العقلى (سجادی، ١٣٦١: ٦٠٣). و اليك مخلص ما يعتقده الفريقين في هذا الباب:

شيخ الاشراق يعتقد أن حقيقة النور إما قائمة بالذات وإما قائمة بالغير وهو تعبير شيخ شهاب الدين السهرودي حيث يقول: "إن كان في الوجود ما لا يحتاج الى تعريف و شرح فهو الظاهر الجلي في نفسه المظهر لغيره، و لا شئ في الوجود أظهر من النور، فلا شئ أغنى منه عن التعريف، فالنور هو الظهور وذلك إما لذوات قائمة بنفسها كالعقول والنفوس أو هيئات نورانية قائمة بالغير روحانيا و لما كان الوجود بالنسبة الى عدم كنسبة الظهور الى الخفاء و النور الى الظلمة كانت الموجودات من حيث خروجها من عدم الى الوجود كالخروج من الخفاء الى الظهور والظلمة الى النور يكون الوجود كله نور، و عدم كله ظلمة. ولما مراد من الضوء و النور واحد، وينقسم الى ماهو نور و ضوء في نفسه و الى ما ليس بنور في حقيقة نفسه. والاول ينقسم الى ما هو ليس بهيئة لغيره بل قائما بنفسه وتسمى هيئة عارضة له و يسمى الانوار الانوار العرضية، وما هي لا تقوم بذاتها بل يفتقر الى محل تقوم به سوى كان محلها الانوار - المجردة أو الاجسام و تسمى بالهيئة والنور العارض. و الثانى و هو ليس بنور في حقيقة نفسه ينقسم الى مستغن عن المحل و هو الغاسق اعنى الجوهر الجسماني المظلم فى ذاته من حيث جسميته فانه مظلم لا نور فيه، و الى ما هو محتاج الى المحل فهو هيئة لغيره و هو الهيئة الظلمانية." (سهروردي: ١٩٧-١٩٨)

والشيخ صدر الدين محمد الشيرازي المتأثر في أكثر قضايا الفلسفة بفلسفة الاشراق يرى النور بهذا التعريف مساوقا للوجود بل نفس الوجود ثم ينقسم باقسام. انه يقول: «ان اريد به الظاهر بذاته و المظهر لغيره فهو مساوق للوجود بل نفسه فيكون حقيقة بسيطة كالوجود منقسما بانقسامه، فمنه نور واجب لذاته قاهر على ماسواه، ومنه انوار عقلية ونفسية وجسمية و الواجب تعالى نور الانوار غير متناهي الشدة وما سواه، انوار

من خلال إنارته قابلية الظهور و التجلي، فهي مضيئة مشرقة بنفسها، و لها نور و إشراق لا ينفك عنها تُضيء به الموجودات الواقعة في معرض إشعاعه.

بيد أن غير الشمس، كالقمر و النجوم، و الارض بمحتوياتها، مظلم داكن، لو تصرمت عليها ملايين السنين و لم يصلها نور الشمس فستبقى غارقة في الظلام الدامس المحض بلا ظهور و لا تجل.

و بإشعاع النور يرى الإنسان الاشياء، لا يخفى عليه منها شيء، لكنه يرى النور نفسه بلا حاجة إلى مظهر له أو دليل عليه، إذاً النور نفسه مظهر لنفسه دليل عليها، على العكس من الظلمة التي ذاتها عبارة عن الإهمال و الجهل، علاوة على منعها رؤية الموجودات الماثلة فيها القابعة تحت أفقها.

هذا و ان الشيخ صدر الدين محمد الشيرازي يراه غنيا عن التعريف كسائر المحسوسات ويقدم تعاريفا له قائلا بأنه: «غني عن التعريف كسائر المحسوسات و تعريفه بأنه كيفية هي كمال اول للشفاف من حيث انه شفاف او بانه كيفية لا يتوقف الابصار بها على الابصار بشئ آخر. و هو تعريف بما هو اخفى»

اما تعريف النور اصطلاحيا يختلف باختلاف المذاهب التي سلكها العلماء منها:

فالعرفاء يقولون في النور إنه تجلى الحق بالإسم الظاهر؛ هم يعنون وجود العالم الظاهر في لباس جميع الصور الكونية، والجسمانية منها و الروحانية (سعيدى، ١٣٨٣: ٨٧٦).

اما النور لدى الصوفية وجود الحق باعتبار ظهوره في نفسه و اظهاره للغير في العلم و العين و يسمى شمسا ايضا (نور بخش، ٢٠٧: ١٣٧٣).

و في الفلسفة نجد تعريفين عند الفلاسفة تعريف للاشراقيين و الآخر للمشائيين. و ذلك حسب بناء مبادئ فلسفتهم. أن فلسفة الاشراق تبنى على النور و الظلمة بينما فلسفة المشاء تبنى على الوجود و الماهية. و من هنا تنشأ تقسيماتهم للنور، فكما أن الوجود بالذات و بالعرض كذلك النور بالذات

متناهية الشدة...» (صدر المتألهين، ج ١: ٨٨-٨٩).

أما النور في فلسفة المشاء هو الوجود؛ أي جميع الموجودات من عاليها إلى سافلها كلها نور و حقيقتها واحدة إلا أنه إنعكس في قابليات مختلفة وكل عكسه حسب قابليته فظهر في مراتب عديدة، حيث كل مرتبة تكون أدنى من المرتبة التي فوقها وأعلى من الأدنى منها وذلك حسب ما شاب هذه المراتب من ظلمة وكثافة حيث لو أزيلت هذه الكثافة والظلمة لتساوت جميع مراتب النور في التجلي وانصبت في مورد واحد. وهو المظهر الاصيلي للنور الذي يمتاز بكمال النورانية. كما عبّر الحاج ملاهادي السبزواري عنه في شرحه لدعا الجوشن الكبير قائلاً: «قد عرّف النور بأنه الظاهر بذاته، المظهر لغيره. وهو القدر المشترك بين جميع مراتبه من الضوء وضوء الضوء والظل» وظلّ الظل في كلّ بحسبه. وهذا المعنى حق حقيقة الوجود، إذ كما إنها الموجودة بذاتها وبما توجد الماهيات المعدومة بذواتها بل لا موجودة ولا معدومة، كذلك تلك الحقيقة ظاهرة بذاتها مظهره لغيرها من الأعيان والماهيات المظلمة بذواتها بل لا مظلمة ولا نورية. فمراتب الوجود: من الحقائق والرقائق والأرواح والأشباح والأشعة والأظلمة، كلّها أنوار، لنحقق هذا المعنى فيها، حتّى في الأشباح الماديّة وأظلال الأظلال السفلية؛ إذ كما أنّ شعاع الشعاع الذي يدخل من البيت الأوّل إلى البيت الثاني بل إلى الثالث وهكذا بالغا ما بلغ نور ظاهر بالذات مظهر للغير وإن بنحو الضعف في الصفتين، كذلك الوجودات الماديّة المعدومة عند الإشراقيين من الغواسق والظلمات، كلّها أنوار لكونها ظاهرة بذواتها بما هي وجودات، مظهره لماهياتها، بل نفس المادة التي هي أظلم الظلمات وأوحش الموحشات المعبر عنها عند الأقدمين بالظلمة والهاوية نور وكيف لا؟ وهي أحد من أنواع الخمسة الجوهرية، والجوهر من أقسام الوجود، والوجود نور» (السبزواري: ١٣٧٥: ٤٧٠-٤٦٩).

إذاً الفارق الموجود بين حكمة الاشراف وحكمة المشاء هو أن الاشرافيين يعتقدون حقيقة النور إمّا قائمة بالذات وإمّا

قائمة بالغير. فهذا التعريف لا يشمل جميع الموجودات. لأنّ حسب هذا التعبير يطلق النور على نور الأنوار العرضية والأنوار العرضية. لكن الأجرام والأجسام تعتبر غواسق ولا يطلقون النور على الظلمات. وهذه الموجودات "الظلمات" ليس من النور. بينما في رأي صدر المتألهين الوجود يشمل جميع الموجودات من عاليها (الواجب بالذات) إلى دانيها وهي المادة. وفي هذا المعنى يكون النور أحصّ من الوجود (الجوادي الاملي. انتشارات، ١٣٦٨، ٢: ١/١٣٦-١٣٥).

يعبّر شارح دعا السحر أحمد زمرديان عن هذا النور بالنور الباطني الذي تحلّت به كل موجودات العالم، وجعلها تسبحه كما قال سبحانه وتعالى: «وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده». (الإسراء، آية ٤٤)

كما أنّ العلامة طباطبائي يذكر هذه الآية وآية «الم تر أنّ الله يسبح له من في السموات والارض والطير صفات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه». (سورة النور، آية ٤١) كبرهان لصحة قوله في تفسير آية النور على أنّ لفظ النور بمعنى تجلّي الموجودات وظهورها؛ حيث يقول: «هذا لسان حال كل الموجودات وهو التسبيح الذي ينسبه سبحانه وتعالى إلى السموات والارض وما فيها، والله يحتاج بهذه الآية على أنّه نور السموات والارض كما قيل كرارا انه يفيض النور على كل من يحتاج اليه. فالاشياء بظهورها تدلّ عليه» (طباطبائي، ١٣٦٣، ج ١٥: ١٨٩). اذا هذا هو النور الذي أضاء له كل العالم كما قال في دعا أبي عبد الله: «و بنور وجهك الذي أضاء له كلّ شيء» (الشيخ الكليني، ١٣٦٥ ج ٢: ٥٨٥) فلهذا يتمّ التوسل به في الادعية مثل ما حدث ذلك في دعا السحر «اللهم اني أسئلك من نورك بانوره وكل نورك نير اللهم اني أسئلك بنورك كلّ» (زمرديان، ١٣٥٣).

فارق النور والضياء

كان العرب قديماً لا يفرقون بين الضياء والنور فكلاهما عندهم بمعنى الضوء المنتشر من النيرات. لكن أهل اللغة يقولون: الضياء

عليه دون العكس.. وفي جمع الظلمة وتنكيرها وإتياعها ما يدل على أنها ظلمة لا يتراءى فيها شبحان، وفي قوله (لا يبصرون) دلالة على أن الظلمة بلغت مبلغاً ييهت معها الواصفون (نيسابوري، ج ١: ٦٠-٦١).

و بتطبيق ما اكتشفه العلم حديثاً نجد أنه لما أضاءت النار ما حول المنافقين من الأجسام المعتمة، سقط الضوء فوقها، وانعكس عنها، فكشفها للناظرين، ثم ذهب الله بالضوء الساقط المنعكس عن هذه الأجسام، وهو الذي كان يسقط على أبصارهم، ولذلك نسبته إليهم بقوله جل جلاله وعلا (بنورهم) أما ما ينبعث من النار فـ "ضياء"، وأما بعد سقوطه على الأجسام المعتمة وانعكاسه عنها فـ "نور"، ففي هذه الآية القرآنية جعل الله النور ضدّاً أو مقابلاً لظلمة الأجسام غير المضئية بذاتها، لأنه هو السبب المباشر في إزالة الضوء الذاتي (قبل سقوطه على هذه الأجسام وانعكاسه عنها) فليس هو السبب المباشر لإزالة ظلمتها، فقد وجد هذا الضوء في الغرفة، لكنه لا يسقط على أجسام، فلا ينعكس عن شيء، وبالتالي لا تنير الغرفة فالوحي الإلهي هو الضوء الذي يبدد ظلمات النفوس البشرية، كما أن الضوء الحسي يقع على دقائق الغلاف الجوي (للأرض) فينير النهار، حتى وإن لم تسقط أشعة الشمس على الأجسام والأشياء أمامنا.

على العموم لفظ الضوء يختص بالمضيئ بالذات بينما النور لفظه عام يشمل المضيئ بالذات و المضيئ بالعرض. كما أن الضوء يستعمل في اللمعان الحسيّ و النور يستعمل في كلّ من اللمعان الحسيّ والباطني (التهانوي، ١٣٩٤: ١٩٦٧).

اغراض بلاغية تتعلق باستخدام لفظ النور

ان في استخدام الالفاظ في الكلام لاسيما كلام الوحي اغراضا بلاغية ظريفة لايفهما الا الفطن. فالكتب البلاغية مملوءة بالكثير من هذه الاغراض، و القرآن يعدّ المصدر الأوّل للشواهد التي روتها هذه الكتب لما فيها من دقّة و روعة و جمال في المعنى. فمن الطبيعي ذكر بعض هذه الاغراض المرتبطة بصلب

الموضوع تكشف عن المعاني التي تطّلع اليها المفسرون. التنكير، والتعريف بالمضاف اليه، والاستخدام المفرد للفظ النور قضايا بلاغية توجه اليها المفسرون في تفاسيرهم، وبينوا المعاني الملتفة في طياتها.

اولاً؛ لقد جاء لفظ النور مضافا الى الضمير الذي يرجع الى الله سبحانه تعالى، في آية النور حيث يقول سبحانه "مثل نوره كمشكوة فيها مصباح". والعلامة الطباطبائي في هذا المجال يقول أنّ الإضافة اللامية دليل على أنّ المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله، بل النور المستعار الذي يفرضه، وهو النور الخاص بالمؤمنين بحقيقة الايمان (علامه طباطبائي، ج ١٥: ١٧٣)، والدليل على ذلك "يهدي لنوره من يشاء" (النور، الآية ٣٥).

نجد انتساب هذا النور الى الله في كثير من الآيات والروايات منها في قوله تعالى "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ" (المائدة، ١٦). وقوله: "يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" (الصف، الآية ٨).

و كذلك في دعا السحر نقرأ: اللهم إني أسئلك من نورك بأنوره وكلّ نورك نير اللهم إني اسئلك بنورك كلّ". وفي رواية اخرى يقول "إنّ الله تعالى سبعين حجاب من نور وظلمة" (الاحسائي، ابن ابي الجمهور، ١٤٠٥: ج ٤: ١٠٧).

إنّ النور في كلّ هذه العبارات انتسب إلى الله؛ لأنه خالقه وجاعله. ومن الطبيعي أنّ الله يختار النور الذي افضل الأنوار. فالشيخ احمد بن زين الدين الاحسائي في شرح الزيارة يقول عن هذه النسبة "ولما كانت هذه الأنوار صدرت بعضها من بعض اختار سبحانه النور الذي صدرت منه الأنوار ولم يصدر عن نور مفعول و إنما صدر لفعله ومشيته اي بنفس ذلك النور فنسبه إليه و إضافته إلى نفسه تكريماً له وتعظيماً وإبانة له من سائر خليقته" فاضافة النور إلى السماوات في بداية هذه الآية و هو إشارة إلى سعة اشراقه و شمول هذا النور الذي غطى عالم الوجود بأسره.

والنور. أما ان مجيئه في الآيات الاولى مع الألف و اللام لأن مدلول في هذه الآيات هو القرآن وبما أن حقيقة القرآن مطلق عام و شامل ينطوي على كل نور، لذا جاء بألف و لام الجنس التي تفيد الاستغراق والعمومية. تنبيهنا لنا على انه معين لا ينضب، وجميع الكتب قاصرة دونه، ولا يحيط بحقيقته إلا أولياء الله المقربين وجميع الكتب قاصرة دونه. لكنه جاء نكرة في الآيات التالية لأن مدلوله التوراة والإنجيل، وذلك لاختلاف مرتبتهما بالنسبة إلى القرآن.

قد يكون دليل تنكيهه للتعظيم كما نقول «له حاجب عن كل امر يشينه» اي له مانع عظيم. هكذا هي الحال في «قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين» (المائدة، الآية ١٦) و «يا ايها الناس قد جاءكم نور من ربكم» فإنه يريد الأخبار بالنور العظيم الذي تخلص من جميع الحجب بحيث نسه الى نفسه وقال فيه «جاءكم من الله نور و كتاب مبين» لانه طلب ذلك من سبحانه وتعالى قائلا «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَ فِي سَمْعِي نُورًا وَ فِي بَصَرِي نُورًا وَ فِي لِسَانِي نُورًا، وَ عَنْ يَمِينِي نُورًا وَ عَنْ شِمَائِلِي نُورًا وَ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَ مِنْ تَحْتِي نُورًا وَ أَمَامِي نُورًا وَ خَلْفِي نُورًا وَ اجْعَلْنِي نُورًا وَ اعْظِمْ لِي نُورًا» (نوري، ج ٥) و تجلي فيه احسن تجلي و استحق اسم النعمة الكبرى التي تفضل بها الله على خلقه وقال «اليوم اكملت لكم دينكم اتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» (المائدة، الآية ٣).

مصاديق النور

للنور مصاديق و دلالات متعددة أهتم الكثير من العلماء واهمكوا في بيان هذه الحقيقة و كیفيتها ليلبغوا غايتها. فكل منهم قام بتبيين هذا اللفظ و البحث عن مدلوله و مصداقه في القرآن و الأخبار المأثورة وبلغوا في ذلك مبلغا عظيما الا أن حقيقة النور أعظم من يحيط بها الفكر إحاطة تحقها حق معرفتها لذا كل منهم ادركه حسب قابليته، فبينه في قالب الألفاظ والعبارات.

ثانيا؛ ورد «النور» في القرآن العظيم مفرداً دائماً، أما «الظلام» أتى في القرآن العظيم دائماً بصيغة الجمع، وفي هذا حكمة بالغة. وأما الأمثلة التي توضح هذا فعديدة، منها قول الله تعالى: "اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (البقرة، الآية ٢٥٧).

إضافة إلى الآيات ١٦-١٧ البقرة ١٩-٢٢ فاطر ١٥/المائدة ١٧٤/ الأنبياء، ٤/النور، ٣٢/التوبة، /الزمر.

وقد تكون الحكمة من إفراد " النور " وجمع " الظلمات " هي أن النور مستمد من نور الله، الذي هو صفة من صفاته سبحانه وتعالى، فاقتضت الحكمة أن يفرد كما تفرد سبحانه بجميع صفاته.

والنور في حقيقته شفاف، وبالتالي فمن يحصل على القليل منه، يهديه إلى الكثير، أما الظلام فداءً و وباءً، و قليله يولد كثيره، و الظلمات عديدة، ظلام الجهل، ظلام الضلال، ظلام الكفر، ظلام التيه، ظلام الحيرة، ظلام العناد، ظلام المكابرة.. الخ..

و لكن النور واحد المصدر، ويكفي قليله لإنارة الطريق لمن شرح الله صدره للإيمان. كما قال العلامة الطباطبائي في قوله تعالى "ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه": بأن جمع الظلمات و افراد النور اشارة الى ان طريق الحق لا اختلاف فيه و لا تفرق و ان تعددت بحسب المقامات والمواقف، بخلاف طريق الباطل...

ثالثاً؛ جاء لفظ النور في بعض الآيات معرفة بالـف و لام الجنس مثل "والنور الذي أنزلنا"، و"اتبعوا النور الذي انزل معه". و في بعض الآيات جاء بلفظ النكرة مثل "إننا انزلنا التوراة فيها هدى ونور" (المائدة، الآية ٤٤) و"وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة و آتيناه الانجيل فيه هدى ونور" (المائدة، الآية ٤٦). و يُلاحظ في هاتين الآيتين ورود فيه هُدي و نُور و هو تعبير يُعابير فيه الهدي

چونکه درک چیزها از حدّ شود

هر چه را حد نیست از مدرك رود

نور رویت را نه حد و منتهاست

پس برون از حد درک ما سواست

على العموم من مصاديق لفظ النور هو الإيمان بالله واليقين به. من الآيات التي يدل فيها النور على الإيمان حسب قول المفسرين منهم العلامة الطباطبائي حيث يقول في تفسير قوله تعالى: «... يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا وأغفر لنا إنك على كل شيء قدير» (التحريم، آية ٨) أنّ السياق يفيد أنّ المغفرة المسؤلة سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فيفيد أنّ في نورهم نقصا، والنور نور الإيمان والعمل، فلهم نقائص بحسب درجات الإيمان أو آثار السيئات التي خلت محالّها في صحائفهم من العبودية في العمل فيسألون ربّهم أن يتمّ لهم نورهم ويغفر لهم. و صاحب تفسير النور به أشار إلى نفس المصداق، في تفسيره، لهذه الآية (مكارم شیرازی، ۱۳۶۶، ج ۲۴: ۲۹۲ ايضا ج ۲۳: ۳۳۰-۳۳۱، وشیر، ۱۹۷۷: ۳۵۲) كذلك الزمخشري، ج ۴: ۶۳). وأيضاً قال العلامة في تفسيره لقوله تعالى: «يسعى نورهم بين أيديهم وأيمانهم» أي «انهم ساعون بنور الإيمان و نور العمل الى درجات الجنة التي أعدها الله سبحانه لهم وتستنير لهم جهات السعادة ومقامات القرب واحدة بعد واحدة حتى يتمّ لهم نورهم» (طباطبائي، ج ۱۹: ۱۵۵) ويستمر في تفسير الآية التي تليها وهي «قل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا...» (الحديد، الآية ۱۳) قائلاً أنّ النور في هنا هي الأعمال وإكتساب الإيمان في الدنيا (همان: ۱۵۶).

أيضاً نجد هذا التعبير من النور عند عبد الله شير في تفسير الآية الكريمة "ليخرجكم من الظلمات إلى النور" (الفرقان، الآية ۴۲) حيث يقول نخرجكم من الجهل بالله (الى النور) الى معرفته أو من الكفر إلى الإيمان (شير: ۴۰۲).

«الهداية و الهادي» مصداق آخر أطلقه المفسرون على لفظ

النور وذلك في قوله تعالى: «الله نور السماوات والأرض» أي هادي أهل السماوات الأرض، يعني بنوره اهتدت الاشياء الى عالم الوجود (زمرديان: ۹۷) أو هادي من في السماوات والأرض بنوره و هو محمد و أهل بيته (ص) (الأحسائي: ج ۱: ۲۰۶). و إنه ليس ببعيد لأنّ من المصاديق التي أطلقها المفسرون على النور هو نور محمد واهل بيته (ص). وهو اطلاق اتفق عليه اكثر المفسرون في تفسيرهم الروائي وغيره للآيات التي تزينت بهذا اللفظ المبارك. من الآيات التي جاء فيها النور بهذا المعنى قوله تعالى «قد جائكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام...» (المائدة، الآية ۱۶) فيقول العلامة من المحتمل أن يكون المراد بالنور النبي (ص) على ما افاده صدر الكلام في الآية «قد جاءكم رسولنا» وقد عدّه الله تعالى نورا في قوله: «يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله ياذنه وسراجا منيرا» (الاحزاب، الآية ۴۶)، وقد تمّ اطلاق النور على النبي محمد (ص) و اهل بيته الاطهار (ع) في آيات أخرى، مثل آية النور.

العلامة الطباطبائي والزمخشري وغيرهم يفسرون النور بلطف الله سبحانه وتعالى الذي يشمل عباده. على سبيل المثال يقول الزمخشري في ذيل الآية «افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه» يعني «افمن عرف الله انه من اهل اللطف، فلطف به حتى انشرح صدره للاسلام و رغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب. ونور الله هو لطفه...» (الزمخشري، ج ۳: ۳۹۴).

القران، ودين الحق، والبرهان، والعلم، والاعمال الصالحة، والعدالة والتدبير وما الى ذلك تعتبر اطلاقات أخرى للنور قد ذكرها المفسرون في تفاسيرهم منها تعبير السيد عبد الله شير في الآية ۸ لسورة الحج (ص ۳۲۲)، كذلك تفسيره للآية ۳۲ من سورة التوبة (ص ۲۰۳)، وتفسير العلامة والسيد عبد الله شير ناصر مكارم الشيرازي (ص ۸۴) للآية ۸ من سورة الصف (ج ۱۹، ص ۲۲۵). ويجب العلم بأنّ جميع هذه تنصبّ

في مصدر واحد و لو انها تعددت في الالفاظ، لكن بما أنها تسوق الانسان الى الحسنات و الفضائل الاخلاقية تبعده من الضلال و الهلاك و الضياع اطلق عليها النور، لكن كل منها في مرتبتها.

النور و مراتبه

للنور مراتب تختلف كل واحدة حسب قابليتها عن الاخرى كما اشير الى ذلك في تعريف المشائين للنور. هذا و نجد معالم اخرى لهذه القضية في الآيات و الروايات، يمكن فهمها من سياق الكلام أو من التعابير المستخدمة في هذه النصوص، على سبيل المثال في دعاء السحر نقرأ "اللهم اني استلك من نورك بانوره و كل نورك نير اللهم اني استلك بنورك كله" كلمات مثل "كل نورك و أنور" تدل على الجمع و التعداد و يصح استخدامها في شئ متعدد؛ لانه يتم و يصح التفضيل اذا كان واقع بين متعدد هكذا الامر بالنسبة الى لفظ كل. أو مثل استخدام لفظ الأنوار بصورة الجمع في كلام الإمام الصادق (ع): "كان الله ولا كان فخلق الكان و المكان فخلق النور الذي نورته منه الانوار و هو محمد و علي" (الشيخ الكليني، ج ٤: ٤٤١. حديث فهم). و اوضح دليل على وجود هذه المراتب قول: «ان الله سبعين الف حجاب من نور و سبعين الف حجاب من ظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل ما انتهى اليه» و المقصود من سبحات وجه الله اشراقاته المقدسة (العلامة المجلسي، ١٤٠٤ق. ج ٥٥: ٤٦). فهذه الانوار مهبط الفيض. و الخلق يتلقون المدد من الله سبحانه عن طريقها حسب تقابل مرايا ذواتهم لتلك الشمس المضيئة على حسب تفاوت مراتب درجاتهم في السلسلة الطولية و العرضية.

الحاج ملا هادي السبزواري بعد أن يعرف النور بالوجود الذي ظاهر بذاته و مظهر لغيره، يعدّ النور قدرا مشتركا بين جميع مراتبه. و يعبر عن هذه المراتب بالضوء، و ضوء الضوء، و الظل، و ظل الظل في كل بحسبه. اذا حسب رأيه مراتب الوجود من الحقائق و الدقائق و الأمثلة و الأرواح و الاشباح

و الأشعة و الاظلة كلها انوار، لتحقق هذا المعنى فيها حتى في الاشباح المادية و اظلال الاظلال السفلية. ثم انه يأتي بمثال بسيط لتقريب المعنى الى الذهن. فإنه يقول كما أن شعاع الشعاع الذي يدخل من البيت الاول الى البيت الثاني بل الى البيت الثالث و هكذا بالغ ما بلغ نور ظاهر بالذات مظهر للغير و إن كان بنحو الضعف في الصفتين (السبزواري: ٤٧٠-٤٦٩).

اذا للنور مراتب، و التفاوت الموجود بين هذه الانوار هو تفاوت الشدة و الضعف لها، و هو الفارق بين المفيض و المستفيض و بتعبير الفلاسفة البيوتونية بين واجب الوجود و ممكن الوجود. و تمّ التعبير عن هذا الفارق في الادعية بالحجاب. كما نقرأ في دعاء الحجب "يا من احتجب بشعاع نوره عن نواظر خلقه" (العلامة المجلسي، دعاء الحجب، ج ٩١: ٤٠٣) فلو زالت هذه الحجب لاحرقت ما في الكون جميعا كما ورد في الحديث الذي مرّ آنفا. لشعاع نور هذا الحجاب عظمة و جبروت لا توصف كما نقرأ في دعاء الحجب عن النبي (ص) "فلما بدا شعاع نور الحجب من بهاء العظمة حرّت الجبال متدكدكة لعظمتك و جلالك و هيبتك و خوفا من سطوتك راهبة منك" (نفس المصدر)

و ابان ابو عبدالله (ع) هذه المراتب بشكل آخر في حديث رواه الكليني قدس سره بسنده عن شهاب: "قال سمعت ابا عبدالله (ع) يقول لو علم الناس كيف خلق الله تبارك و تعالى هذا الخلق لم يلم احد احدا فقلت له اصلحك الله و كيف ذاك فقال ان الله تبارك و تعالى خلق اجزاء فيبلغ بها تسعة و اربعين جزء ثم جعل الاجزاء اعشارا فجعل الجزء عشرة اعشارا ثم قسمه بين الخلق فجعل في رجل عشر جزء و في آخر عشرى جزء حتى بلغ به جزء تاما و في آخر جزء و عشر جزء و آخر جزء و عشرى جزء و آخر جزء و ثلاثة اعشار جزء حتى بلغ به جزئين تامين ثم بحساب ذلك حتى بلغ بارفعهم تسعة و اربعين جزء فمن لم يجعل فيه الا عشر جزء لم يقدر على أن يكون مثل صاحب العشرين لا يكون مثل صاحب الثلاثة

الاعشار و كذلك من تم له جزء لا يقدر على أن يكون مثل صاحب الجزئين و لو علم الناس أن الله عزّ وجلّ خلق هذا الخلق على هذا لم يلم احد احدا (الكليبي، ج ٢: ١٣٦٥). ايضا الشيخ الحر العاملي (ج ١٦: ١٦٢).

على العموم توجد تعابير مختلفة عن هذه المراتب فمنهم من قسمها الى نور عام وخاص، على سبيل المثال العلامة الطباطبائي يقول: "إنّ النور الذي يفيضه سبحانه و تعالى الى خلقه يعتبر رحمة لهم. وانه على قسمين قسم عام و قسم خاص. فقال سبحانه و تعالى في رحمته العمة: "وسعت رحمتي كل شيء" (الاعراف، الآية ١٥٦). و في رحمته الخاصة قال جلّ و علا: "فاما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم رهم في رحمته" (الجاثية، الآية ٣٠). وجمع بين الاثنين في قوله تعالى: "يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نورا" (الحديد، الآية ٢٨) و من يتبادر الى ذهنه بان بما انه جاءت الآية بالقسمين فالنور يصلح للانطباق على الاثنين؛ بينما النور فيها مقبلا للرحمة الثانية من قسمي الرحمة و هو نور على نور" (العلامة الطباطبائي، ج ١٩٢: ١٥) ومنهم من قال أن للانوار الحقيقية حياة و قسمها الى ثلاثة اقسام قائلا: القسم الاول لها حياة عام و هي الحياة التي تساوق الوجود. و القسم الثاني لها حياة خاص و هي ذات ادراك و فعل. أما القسم الثالث لها حياة اخص و هي تختص بالمؤمنين من الناس ثم توسع في ذلك و قال أن القسم الثالث لهم درجات. ومرتبة كل منهم حسب ما يبلغه من المجاهدة مع النفس. و في ذلك أربعة مراتب. نكتفي بذكرها فقط في هذا المقال. اما هذه المراتب الأربعة فهي؛ الموت الأبيض، و الموت الأخضر، و الموت الأحمر، و الموت الأسود (محمد رضا كلباسي: ٤٧-٥١).

الفاظ كهذه و غيرها استخدمت للتعبير عن مراتب النور. فهذه المراتب أيا كانت فإنّ أعلاها هو النور الحقيقي الذي تستنير به الأنوار الأخرى، و هي حقيقة خلق العالم من أجلها و اهتدى بهدائها. انهم أول ما خلق الله. و الأحاديث التي

وصلت إلينا منهم في هذا المعنى كثيرة منها؛ "اول ما خلق الله نوري" (الشيخ الكليبي، ج ١: ٢٨) (غوالي اللغالي برواية من النبي (ص)) أو قوله..... "نحن صنائع ربنا و الخلق بعد صنائعنا" (نباطي بياضي، ١٣٨٤، ج ٢: ٢٢٥) اي فعلهم كما أن الشعاع يصدر من النور كذلك الخلق يصدر من نورهم ويستمدون به.

بتعبير آخر هم محل لتجلي نور الله، حيث جعلهم آية تعريفه، و بهم عرّف نفسه لهم و للخلق و جعلهم النور الكامل و خلق بهم جميع ما خلق من الاواخر و الاول فاختلقت درجات الخلق بحسب قربهم من ذلك المبدأ و بعدهم عنه فإنّ نورهم السراج الوهاج المنير لجميع عرصات الامكان. فكل نور كان اقرب اليه كان اوحدا و انورا، و اكمل، و اخير. و كل نور كان ابعد عنه، كان اشدّ تكثيرا، و أقلّ نورا، و اكثر نقصا و شرّاً. فبذلك تمّ اختلاف مراتب الخلق. هناك من صار فيه النور اكثر و الظلمة اقل. و منهم من صارت فيه الظلمة أكثر و النور أقلّ و منهم من صار من اهل الاعراف اي؛ الذين تساوى النور و الظلمة فيهم.

حقيقة النور و أهل البيت

كثرت الاخبار الواردة في حقّ اهل البيت في كونهم اول نور خلقه الله. قد تقدم البعض منها آنفا و فيما يأتي مزيدا لتلك الاخبار. من اشهر الاقوال قوله تعالى "لولاك لما خلقت الافلاك" اذ علل وجود كل مخلوق بلولاهم. هم النعمة الكبرى التي اتمها الله على خلقه. وحقّ لهم أن يكونوا النور الأتم لما فيه من قابلية في أن يكون هاديا لأهل السموات والأرض. و لم يكن ذلك الا لانهم افضل مصداق لقوله تعالى: "رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله" (النور، الآية ٣٧) و على اي شخص يصدق هذا المعنى الا من يكن دعائه في كلّ صباح "اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَ فِي سَمْعِي نُورًا وَ فِي بَصَرِي نُورًا وَ فِي لِسَانِي نُورًا، وَ عَن يَمِينِي نُورًا وَ عَن يَسَارِي نُورًا وَ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَ مِنْ تَحْتِي نُورًا وَ أَمَامِي نُورًا وَ خَلْفِي نُورًا وَ اجْعَلْنِي نُورًا وَ أعْظِمْ لِي نُورًا. اذا فكل وجوده نور لهذا قال

سبحانه تعالیٰ فيه "قد جئكم من الله نور وكتاب مبين" (المائدة، الآية ١٦) و وصفه بالسراج المنير".

كما نرى أنّ الزيارات ازدحمت بهذه الحقيقة في أهم مصدر للخيرات وكل ما ينتهي بالناس إلى دار السلام و ياخذ بأيديهم نحو الهداية. و في هذا المعنى يكون قوله في الزيارة الجامعة الكبيرة "كلامكم نور و امركم رشد و وصيتكم التقوى و فعلكم الخير..." فانه يصف كلامهم بالنور؛ لانه هداية لمن طلب الهداية و ذلك لأنهم (ص) لا يتكلمون الا عن القرآن؛ لأنّ الله عز وجل قال في شأن جدهم (ص) "و ما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى" فانهم يحذون حذوه فلا ينطقون الا عن الله ورسوله، فكلامهم نور (الاحسائي، ج ٤: ٦٤). ايضا في هذه الزيارة نجد هذه التسمية في حقهم مثل: "خلقكم الله انوارا" و "وانتم نور الاخيار" و "مصاييح الدجى" و "و نوره" هذا و نقرأ في زيارة النبي (ص) "السلام عليك ايها السراج المنير" (العلامة المجلسي، ج ١٦٣: ٩٧) و "السلام عليك يا نور الله الذي يستضاء به" (نفس المصدر) و في زيارة الامام علي (ع) "السلام على نور الله الانور" (سيد ابن طاووس، ١٣٦٧. ص ٦١٠) وهكذا الامر بالنسبة الي بقية الائمة في زياراتهم.

فالتعابير كلها تدلّ على أنّ ما في الاجسام أو الانفس او العقول من نور الوجود فهو من شعاع نورهم. فما من شئ من الموجودات من نور فمنهم. وما فيه من ظلمة فمن نفسه وهو تأويل (الاحسائي، احمد ج ٢٩٤: ١) قوله تعالى: "و ما ابكم من نعمة فمن الله" (النحل، الآية ٥٣) و "ما اصابك من حسنة فمن الله و ما اصابك من سيئة فمن نفسك" (النساء، الآية ٧٩). فعلهاى توهمه نار هواست

فعلهاى حق همه نور هداست
فانهم نور للهداية في كل عصر و زمان. و نور مشرق لا ينطفئ مثلما ورد في زيارة الامام الحجة (ع) "السلام عليك يا نور الله الذي لا يطفى السلام و السلام عليك يا نور الله الذي يهتدي به المهتدون" (العلامة المجلسي، ج ٩٩: ٩٩)
اختار الله هذا النور على علم منه به. كما اشارت الزيارة

الجامعة الكبيرة الى هذا الاختيار "واحصكم ببرهانه وانتجكم بنوره و ايدكم بروحه" اي؛ اختارهم بنوره. يقول احمد بن زين الدين الاحسائي في شرحها: "أى اختارهم على علم منه بهم اهم الخيرة و ذلك في القدم المخلوق و هو السرمد و مبدأ الفيض و هذا العلم الذي اختارهم به هو الكتاب الاول و يعبر عنه بعبارات كثيرة مختلفة في الظاهر و المدلول والمفهوم، متحدة في المعنى ومنها الحق المخلوق و الكتاب الاول، والعلم المساوق..." (المذكور سابقا، ج ١: ٢٦٧-٢٦٨) "

و لا يستطيع احد من الجبابرة و الاشرار أن يخمده عنادا و جهلا منه. لهذا كلما سعوا في ذلك خيب الله سعيهم و خسثوا. فإطفاءه من المحال؛ لانه سبحانه و تعالى سدده ببيان منه قائلا: "يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" (الصف، الآية ٨) و إي نور احسن من هذا النور المسدد لهداية الانسان.

فهذا التسديد جعل الارض ان تشرق بوجودهم. كما ادلت الزيارة الجامعة الكبيرة الى هذا المعنى "اشرقت الارض بنوركم". و هو تفسير للآية الكريمة "اشرقت الارض بنور ربها" (الزمر، الآية ٦٨) كما روى المفيد عن الامام الصادق (ع) قال: "اذا قام قائمنا اشرفت الارض بنور ربها و استغنى العباد عن ضوء الشمس" (العلامة المجلسي، ج ٥٢: ٣٣٨).

النيسابوري في تفسيره لآية النور يشير الى احد مصاديق النور في القرآن قائلا: "من مصاديق النور هو التدبير بحكمة كاملة كما يوصف الرئيس المدبّر بأنه نور البلد، اذا كان يدبر امورهم تدبيرا حسنا، فهو لهم كالنور الذي يهتدى به في المضايق و المزالق (النيسابوري، ج ٣: تفسير سورة النور). "فحسب هذا الرأى بإمكاننا ان نقول انّ الامام رب الارض لانه يدبر امورها بحكمة كما انّ الاب يسمي رب البيت.

و في تفسير الكشاف يقول الزمخشري انّ اشراق النور يعني انتشار العدل. و رب الارض يعني خالقها و يمكن ان يكون غيرها. و اليك ما يقوله: "و اشرفت الارض بما يقيم فيها من عدل و ييسطه من القسط في الحساب و وزن السيئات،

وينادي عليه بأنه مستعار لإضافته الى اسمه لانه هو الحق العدل، و اضافة اسمه الى الارض لانه يزيناها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه ويحكم بالحق بين اهلها، و لا ترى ازين للبقاع من العدل و لا اعمر لها منه، و في هذه الاضافة ان رها و خالقها هو الذي يعدل فيها، وانما يجوز فيها غير رها... " (الزحشري، ج ٣: ٤١٠)

اما العلامة يرد على الزحشري في تفسيره لهذه الآية باشكالين ثم انه يقول: ليس من المستبعد ان يكون المقصود من قوله تعالى " اشرفت الارض بنور رها " حالة من الحالات التي تختص بيوم القيامة و هي ازالة الحجب وظهور الاشياء بحقيقتها... " (العلامة الطباطبائي، ج ١٧: ٤٧٧)

اما في شرح الزيارة لاحمد بن زين الدين الاحسائي شرح مبسوط في هذه الفقرة. فيكتفي الكاتب بالنقل الموجز لشرحها لضيق المجال. ان الشارح يذكر خمسة اوجه لاشراق الارض بنور اهل البيت على النحو التالي (الاحسائي، ج ٣: ٢٥٢ - ٢٥٥):
اولا: منها اذا قام القائم تنكشف العلوم و الاسرار كما روى عن الامام علي (ع) اذا قام قائمنا يستغني كل احد عن علم الآخر و هو تأويل قوله تعالى: " يغني الله كلا من سعته " ويشرف على حقائق الاشياء لشدة نور قلبه من جهة مقابلة الامام (ع) لقلب المؤمن فيشرق بنوره (ع) و يكمل في اركانه الثلاثة الاعتقاد. والاركان هي ان يعمل بعمل امامه (ع) لانه حينئذ قوي الايمان والعلم والمعرفة. ويكون في جميع الاعمال على حد الصدق مع الله و الاخلاص في العمل بنسبة ما يمكن في حقه فاذا كان بهذا المقام من العمل والاطلاع على حقائق الاشياء بما يمكن له و الصلاح والدين والتقوى والزهد والورع واليقين والايمان الكامل في غاية ما يمكن في حقه من صحة الاعتقاد وصدق اللسان ومطابقة القلب والاخلاص في الاعمال الصحيحة الصالحة التي هي مطابقة لمراد امام (ع). فحيث يصدق عليه اطلاق تابع الامام في كل ذلك. اذ ذاك منشراح الصدر للاسلام ممتحن القلب للايمان فاذا اطمأن ذلك رفع الله عن بصيرته الحجاب وارقاه في الاسباب وفتح

له الابواب واره ما استتر و غاب.

ثانيا: ان اشراق الارض بنور الامام (ع) كناية عن ظهور الحق و انتشار العدل عند ظهوره (ع) حتى لا يستخفى بشيء من الحق مخافة احد من الخلق.

ثالثا: و منها ان زمان رجعتهم و هو برزخ بين زمان هذه الدنيا و زمان الآخرة يكون الطف من زمان هذه الدنيا فيستغني العباد بنور وجودهم (ع)؛ لانه ببركة وجودهم تذهب الظلمة الموجودة بالدنيا التي حدثت بسقوط المعاصي فيها و ذنوبهم لكن برجعتهم تظهر الارض من الذنوب و المعاصي و تذهب الظلمة لذهاب علتها.

رابعا: ان هذا النور الذي تشرق به الارض يكون قبل الرجعة ايضا؛ حيث يقول ان وجودهم في قلوب شيعتهم والسنتهم و ابدانهم و في صدور المسلمين و السنتهم و ابدانهم يمنع من اشتداد الظلمة و تراكمها و يعبد الله بوجود هذا النور؛ حيث لو لم يكن تمسك الناس بهذا لما عبد الله.

خامسا: ان بظهور الامام يعم العدل ويرتفع الجور وترداد البركات والخيرات على الارض و ينمو الاقتصاد.

خلاصة القول انه ثمة نكات فيما مرّ يجدر ذكرها كحسن ختام لهذه القسمة وهي؛

اولا؛ ان نور اهل البيت من الله لوصفه سبحانه و تعالى نبيه بالنور في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا». كذلك الامر بالنسبة الى الائمة الاطهار (ع)؛ لان نورهم واحد لاشارة الزيارات على هذه الحقيقة: "وان ارواحكم ونوركم و طينتكم واحدة" (شيخ صدوق، ١٤١٣ق. ج ٢: ٦١٣)

ثانيا؛ نور آل محمد (ص) الواسطة الاولى لخلق العالم؛ وذلك لقول الامام الصادق (ع): "كان الله و لا كان فخلق النور نورت منه الانوار و هو محمد و علي" (الشيخ الكليني، ج ١: ١٤٤). والروايات التي ادلت بهذا المعنى كثيرة.

ثالثا؛ بنور هداهم يبصر ذو العماية ويستترشد ذو الغواية. كما ورد في الزيارة الجامعة «كلامكم نور و

امرکم رشد...».

رابعا؛ ان نورهم نعمة عظيمة لجميع الخلائق من جميع الجوانب حتى للذى تمتع بالقليل منه. كما هي الحال في شأن المنافقين الذين جاء ذكرهم في الآية السابعة عشر لسورة البقرة اذ يقول سبحانه: "ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون" فالمفسرون منهم الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية بعد طرح هذا السؤال؛ ما وجه التمثيل بمن أعطى نورا ثم سلب ذلك النور منه مع أن المنافق ليس له نور؟ يبين لنا مقدار انتفاع المنافقين بنورهم القليل ذاكرة قول الحسن وهو: "انهم لما اظهروا الاسلام فقد ظفروا بحقن دمائهم، و سلامة أموالهم عن الغنيمة، و اولادهم عن السبي". فانه عد ذلك نور من الانوار الايمان برسول الله (امام فخر الرازي، ج ٢/١: ٨١).

خامسا: ان هذا النور قليله وكثيره مفيد للانسان الا انه يحتاج الى بصائر ترى الاشياء بحقايق الايمان. وهذا لا يتحقق الا بايمان و معرفة قوية يردفها عمل دئوب. فعندئذ يرفع الله عن بصيرته الحجاب و يكون مصداقا لـ «رب ارني الاشياء كما هي».

سادسا: ان التأييد و التسديد من الله سبحانه و تعالى كما جاء في حديث من الامام الصادق (ع)، (قسم من الحديث) «ان الله عز وجل اذا اراد بعبد خيرا نكت في قلبه نكتة من نور فأضاء لها سمعه وقلبه». و سيأتي التفصيل على ذلك فيما يلي.

النور مصدر للهداية

كما تقدم ان الهداية و الايمان من مصاديق النور التي عبر عنها المفسرون في تفاسيرهم و شروحاتهم كما أنهم اطلقوا الظلام على الكفر و الضلالة. اما الآيات التي وردت في هذا المعنى باتفاق اكثر المفسرين كثيرة منها: قوله تعالى: «الله يهدي لنوره من يشاء» (النور، الآية ٣٥) وقوله سبحانه «وَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهُ» (الانعام، الآية ١٢٢).

لو دققنا النظر في هذه الايات لعثرنا على شرطين هامين في

مجال الهداية والايمان بالله وهما: اولاً؛ تتم الهداية من قبل الله سبحانه وتعالى. ثانياً؛ يجب توفر مقتضيات الهداية في نفوس الافراد؛ اي لا بد أن تكون للنفوس قابلية و استعداد. لان الحق لا يوافق عقول قوم فسدت قرائنهم بامراض باطنية أعييت أطباع النفوس عن علاجهم. لهذا الله جلّ وعلی يخاطب النبي (ص) قائلاً: «لئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلك» (البقرة، الآية ١٤٥) وقال ايضا: «ان يروا كل آية لا يؤمنوا به» (الانعام، الآية ٢٥)، كما يوجه الخطاب اليه في مكان آخر قائلاً: «انك لا تهدى من احببت» (القصص، الآية ٥٦) أو يقول سبحانه وتعالى: «إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» (النمل، الآية ٨٠). فهذه الآيات تصرح بأن الهداية من قبل الله سبحانه وتعالى، كما تؤكد على لزوم وجود القابلية و الاستعداد في النفوس، حيث نرى يبين للنبي بانه مهما اصرّ عليهم و مهما جاء بآيات لهم حتى يؤمنوا فانهم لا يؤمنون؛ لأنهم انطوت قلوبهم على ظلمة لا مفر منها. هذا وإن ظلمتها لا تتوقف عند هذا الحد بل تتجاوز الى اقصى من ذلك حيث تشمأز من ذكر الله كما قال سبحانه: «و اذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين من دونه اذا هم يستبشرون» (الزمر، الآية ٢٥) لهذا السبب يدعوهم الله في الآيتين الاخيرتين بالموتى والعمى والصم. وفي مكان آخر يبين لنا بان هذا العمى ليس عمى العيون بل هو عمى القلوب وبالطبع أنه اشد من عمى العيون كما يقول سبحانه: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الحج، الآية ٤٦).

كما نجد صدر المتألهين يذكر امر الاستعداد والقابلية كشرط هام في قبول الحكمة والمعرفة حيث يقول: «فإن لقبول الحكمة و نور المعرفة شروطا و اسبابا كانشرح الصدر، وسلامة الفطرة، وحسن الخلق، وجودة الرأي، وحدّ الذهن، وسرعة

الفهم مع ذوق كشفى، ويجب مع ذلك كله أن يكون في القلب المعنوي نور من الله يوقد به دائما كالقنديل، وهو المرشد الى الحكمة كما يكون المصباح مرشدا الى ما في البيت، ومن لم يكن فيه هذه الامور فضلا عن النور فلا يتعب نفسه في طلب الحكمة، ومن كان له فهم و ادراك ولم يكن له حدس كشفى ولا في قلبه نور يسعى بين ايديهم وبإيمانهم فلا تتم له الحكمة أيضا، وأن سدد من إطفائها شيئا، و احكم من مقدماتها شطرا ومن لم يجعل الله له من نور فما له من نور» (الاملي: ٨٠-٨١).

إذا الانسان لا يتصف بنور الإيمان و المعرفة إلا أن يمده الله بنوره الخاص والله درّمن قال:

اصل هر موجود از فاعل بود

ليك پیدائیش از قابل بود

گر نگرده قابل و فاعل قرین

هیچ موجودی نمی گردد مبین

گر چه باشد آئینه خود مستقیم

عکس بی شاخص دراوکی شد قویم

گر بود آئینه معوجّ و قبیح

عکس نیکو اندر او گردد فضیح

گر بیارد سالها ابر بهار

کی زمین شوره گردد لاله زار

سالك ارچه هاديش كامل بود

وا بماند چونكه ناقابل بود

نفس نفس احمد و نور خدا

غير قابل زونمی جست اهتدا

وكما يقول مولوى فى الاستعداد والقابلية:

نور يابد مستعد تيز گوش

كو نباشد عاشق ظلمت چو موش

وينشد سنائي في هذا المعنى قائلا:

نور خورشيد از جهان فاش است

آفت از ضعف چشم خفاش است

العلامة الطباطبائي في تفسيره آية النور يقول أن الله نورين: نور عام وهو الذى تظهر به السموات الارضون في عالم الوجود، وهو الذى يسمّيه بالرحمة الالهية العامة، وتفسير لـ «الله نور السموات والأرض»، ونور خاص الذى يعتبره تفسيرا لـ «مثل نوره» حيث يفسر قائلا: أن الله يصف نوره وهذا النور لا يكون النور العام بل هو النور المستعار الذى يفيضه للخواص من اوليائه، لأنه لو كان النور العام لما اختصه بنفسه دون الانوار الاخرى (العلامة الطباطبائي. ج ١٥: ١٩٢). الا وهو نور الايمان و المعرفة الذى يتليس به المؤمنون و اشار اليه في كثير من آياته ونسبه الى نفسه كما نجد هذه النسبة في الادعية والزيارات. و ذلك في قوله تعالى: «يُرِيدُونَ لِيُطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (الصف، الآية ٨). كذلك قوله سبحانه: «أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهُ» (الانعام، الآية ١٢٢).

فإن العلامة بعد أستشهاده بهذه الآيات وآيات اخرى من سورة الحديد وسورة الزمر يقول هذا هو النور الذى خصّ الله عباده به حتى يستمدّون به رشدهم. وهو نور الايمان والمعرفة (همان).

كما يلاحظ أن نسبة العبد الى نفسه يؤيد هذا الامر بأنه تتم هدايته الخاصة للذين وطّدوا خطواتهم في طريق الايمان، فضلا على ذلك يدعم ذلك بذكر صفة «رحيم» وهي تختص بالمؤمنين دون الآخرين.

وفي آية أخرى بإمكاننا مشاهدة هذا المعنى بوضوح لانه يجعل سبحانه وتعالى للنور مراتب؛ فيخص اهل الإيمان بمرتبة تتميز عن مرتبة اهل الكفر، وهي مرتبة عظيمة لا ينالها الا الخواص من عباد الله، وهم المؤمنون الذين يفوزن بولايته. كما قال في محكم كتابه: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» (البقرة، الآية ٢٥٧). وللعلامة الطباطبائي في هذا الخصوص تعبير لطيف على قوله

- [۴] التهانوی، محمد اعلی بن علی، کشف اصطلاحات الفنون. مكتبة خيام ۱۹۶۷.
- [۵] الجواد الاملي، عبدالله، شرح الحكمة المتعالية الاسفار الاربعة. ج ۱/۲. انتشارات الزهراء آبان، ط ۱، ۱۳۶۸.
- [۶] شيخ حر عاملي. وسائل الشيعة. انتشارات آل بيت. قم ج ۱۶.
- [۷] الخوري، سعيد. اقرب الموارد. انتشارات اسوه. ط ۱، ج ۵. ۱۳۷۴.
- [۸] دستغيب، سيد محمد، نغمه های عارفانه شرح دعای ملکوتی سحر، شیراز، چاپخانه مصطفوی، ۱۳۷۷.
- [۹] زمردیان، احمد، معارف الهی. شرح دعای سحر، چاپخانه ی موسوی، ۱۳۵۳.
- [۱۰] الزمخشري، جابر الله محمود بن عمر، تفسير الکشاف. الدار العلمية. ج ۳ و ۱.
- [۱۱] السيزواري، الحاج ملا هادی، شرح الاسماء و شرح دعا الجوشن الكبير، تحقيق نجفعلی حبيبي، انتشارات جامعة تهران، ۱۳۷۵.
- [۱۲] سجادي، سيد جعفر، فرهنگ اصطلاحات فلسفي، سازمان چاپ و انتشارات وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامي، ط ۱۳۷۹، ۱.
- [۱۳] سجادی، سيد جعفر، معجم العلوم العقلية، تهران، انجمن اسلامي حکمت و فلسفه ۱۳۶۱.
- [۱۴] سعیدی، گل بابا، فرهنگ اصطلاحات عرفاني ابن عربي، انتشارات تهران، ط ۱۳۸۳، ۱.
- [۱۵] سهروردي، شيخ شهاب الدين يحيى، ترجمه جعفر سجادی حکمة الاشراق، مؤسسه انتشارات و چاپ دانشگاه تهران.
- [۱۶] شير، عبدالله، تفسير عبدالله شير، دار احياء التراث العربي، ط ۳، ۱۹۷۷.
- [۱۷] الشيرازي، صدر الدين محمد، الاسفار الاربعة، مطبعة مصطفوي، ج ۱/۲.

تعالی: «... کتاب آنز لناء اليك لنخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم» فانه يقول اذا نسب الاخراج من الظلمات الى النور الى غيره تعالی کني أو کتاب فمعنی اذنه تعالی فيه اجازته و رضاه. وهو قيد للهداية، على ان النبي و الكتاب لا استقلال لهما في أمر الهداية، والسبب الحقيقي لذلك هو الله سبحانه وتعالی. كما نرى هو الذي يأمر موسى بهداية قومه قائلا سبحانه وتعالی: «و لقد ارسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور» (ابراهيم، الآية ۵).

على العموم التنور بنور الإيمان والمعرفة يستلزم تسديده الباري و ارادة الانسان واستعداده لقبول هذا الأمر كما نقرأ في دعاء السحرة طالبن الاستنارة التامة منه قائلين: «اللهم اني اسئلك من نورك بانوره و كل نورك نير اللهم اني اسئلك بنورك كله». الأستاذ احمد زمردیان في شرحه لهذا الدعاء يقول: إن ظهور نور المعرفة في قلب الانسان يعني خروجه من مأزق وادی الكفر و من ثم الوصول الى كمال مرتبة الإيمان، لكن مقدمة هذا المقام بيد الإنسان نفسه، بأن يطلب من الله التوفيق في حصول القابلية و التنور بنور المعرفة (زمردیان: ۱۰۲). و نرى الامام السجاد (ع) يقول في مقام الدعاء «يا غفار بنورك اهتدينا» (شيخ طوسي، ۱۴۱۰ق، ج ۵: ۵۸۵) في هذه الفقرة تم التوسل بنور الله في طلب الهداية منه كما تم ذلك في «اللهم اني اسئلك من نورك...» و غالب الادعية الواردة من اهل البيت. وهذا مؤيد لما نحن بصدده من وجوب توفية الشروط التي ذكرت.

المصادر

- [۱] الاحسائي. ابن ابی الجمهور. عوال اللألی، قم انتشارات سيد الشهداء، ج ۴، ۱۴۰۵ق..
- [۲] الاحسائي، الشيخ احمد بن زين الدين، شرح الزيارة، ج ۱ و ۲ و ۳ و ۴ بیروت، دار المفید. بیروت. ط ۲۰۰۳، ۴.
- [۳] سيد ابن طاووس. اقبال الاعمال. تهران، دار الكتب الاسلامية، ۱۳۶۷.

- [١٨] شيخ صدوق، من لا يحضره الفقيه، قم انتشارات جامعه مدرسين، ج١٤١٣، ٢ق.
- [١٩] طباطبائي سيد محمد حسين، ترجمه تفسير الميزان، مترجم سيد محمد باقر موسوي همداني، بنياد علمي فكري علامه طباطبائي، ج١٥ و ١٧ و ١٣٦٣، ١٩.
- [٢٠] شيخ طوسي مصباح المجتهد بيروت، انتشارات فقه الشيعه، ج١٤١٠، ١ق.
- [٢١] نباطي بياضي، علي بن يونس، الصراط المستقيم، انتشارات حيدرية نجف، ج٢، ١٣٨٤.
- [٢٢] نور بخش، جواد، فرهنگ نور بخش اصطلاحات تصوف.. انتشارات ١١٠ ط، ٣، ١٣٧٣.
- [٢٣] نوري، محدث، مستدرك الوسائل، قم، انتشارات آل بيت، ج٥.
- [٢٤] نيسابوري، نظام الدين حسن، غرائب القرآن في رغائب الفرقان، النسخة الخطية. ج١ و ٣.
- [٢٥] العلامة المجلسي، بحار الانوار، بيروت، مؤسسة الوفاء، ج٥٢ و ٥٥ و ٩١ و ٩٧ و ٩٩، ١٤٠٤ ق
- [٢٦] كلباسي، محمد رضا، شرح دعای كميل، نهضت زنان مسلمان، ١٣٦١.
- [٢٧] الشيخ الكليني، اصول الكافي، تهران، دار الكتب الاسلاميه، ج٢ و ١٣٦٥، ١.
- [٢٨] محمد الرازي، فخرالدين، التفسير الكبير لبنان، دار الفكر، ط٢، ج٢/ ١٩٨٣، ١.
- [٢٩] مكارم شيرازي، ناصر تفسير نمونه، قم، مدرسه امير المؤمنين، دار الكتب الاسلاميه ج٢٣ و ٢٤.

نور در معارف قرآنی

سید حسن سیدی^۱، محمد جواد حضاوی^۲

تاریخ دریافت: ۱۳۸۵/۷/۱۷

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۵/۱۰/۲۶

واژه نور در قرآن و معارف دین مثل دعاها، زیارت نامه‌ها و روایت فراوان به کار رفته است. کاربرد فراوان این واژه مایع جلب نظر مفسران گشته است و هرکس بسته به نگاه فلسفی خود به آن پرداخته است. قرائتهای مختلفی از مفهوم و مصداق این واژه شده است. مقاله حاضر به بررسی جنبه‌های دلالتی این واژه و رویکردهای متفاوت مفسران پرداخته است.

واژگان کلیدی: نور، قرآن، تفاسیر

۱. دانشیار گروه عربی دانشگاه مشهد

۲. دانشجوی دکترای زبان و ادبیات عربی